

الرثاء وأفاقه الجديدة في المشرق العربي

د. أحمد عبد المنعم العسيلي

المدرس بقسم الأدب والنقد

فن الرثاء من الموضوعات البارزة ، في الشعر العربي والآداب العالمية ، بل هو من أول فنون الأدب ، حيث وجد منذ وجد الانسان ، ولأن الرثاء يقتترن بالموت وليس في العالم أمة لم تعرف الموت ، وبالتالي لم توجد أمة من الأمم لم تعرف الرثاء .

فالرثاء ، وجد عند كل الأمم والشعوب بادية ، وراقية ، متحضرة « ونحن نجد صوراً مبثوثة منه في الأدب القرعوني القديم ... وعلى هذه الشاكلة ، لا توجد أمة مهما أوغلت في البداوة أو صعدت في مراقى الحضارة الا وهى تبكى مرثاها بكاء يصور حزن الانسان على أخيه » (١) وهو أدل فنون الأدب على فطرة الانسان اذ هو صدى لما في داخل النفس ذاتها ، وهو التعبير عن أشد النزعات فيها وهو الحزن ، والألم ، على من رحلوا عن هذه الدنيا الى الدار الآخرة .

وهذا الفن من الطبيعي أن يكون هوغلا في القدم ، لأنه منذ وجد الانسان وجد أمامه هذا المصير المحزن : مصير الموت ، والفناء ، والرحيل الذى لا بد أن يصير اليه كل حى وينجم عنه الحزن ، والألم ، الذى يتجسم في عبارات شعرية تعرف بالرثاء .

(١) فن الرثاء ص ٩ - ١١ للجنة من أدباء الأنطار .

فالرثاء هو البكاء والحزن والتفجع « وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا بالتلف والاسف والاستعظام » (١) ولكل أمة مراثيها والأمة العربية ، من الأمم التي تحتفظ بتراث ضخم ، من هذه المراثي وهو باب واسع من أبواب شعرها لأن ، « فنون الشعر ، وأغراضه مظهر من مظاهر البيئة ، في معناها الشامل ، وأثر واضح لما تنعكسه من أهداف ، وغايات ومن ثم يستمد الشعر فنونه واتجاهه من صميم الواقع الذي يعبر عنه ويفصح عن مطالبه وحاجاته » (٢) .

ولما كان الرثاء من نتاج العاطفة الشديدة ، والانفعال العميق ، فقد حفل به ديوان شعرنا العربي ، وانطلق فيه خيال الشعراء مضخما مهولا وبرزت فيه الحقائق التاريخية متسربة ، بلباس العاطفة الجياشة ، فاشتدت فيه الأساليب الكلامية ، والألفاظ والحروف وتدفقت هدارة تنفّس عن انفجارات النفوس واصطخبات القلوب لكونها ترافق ضياع العزيز ، وفقد الحبيب ومن هنا كان الرثاء من الموضوعات البارزة ، من بين أغراض الشعر العامي وبالذات شعرنا العربي إذ طالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم الى مصيرهم الذي لا بد أن يصير إليه كل انسان ويصبح أثرا بعد عين ، وكأن لم يكن شيئا مذكورا . وهذا ما حدا بالشعراء لنذب أنفسهم وبكاء أرواحهم بالدموع الغزار أو بكاء الأهل والأصدقاء ، ممن يحبونهم ويؤثرونهم ، وجعلهم يرسلون الدمع مدرارا فتسيل كلماتهم به أشعارا .

(٢) العمدة ج ٢ ص ١٤٧ لابن رشيق تحقيق محمد محيي الدين دار الجيل الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٢ .

(٣) دراسات في تاريخ الأدب في أزهي عصوره ص ٤٥ د. خفاجي ود. عبد الرحمن عثمان .

فالشاعر العربي بكى نفسه ، وبكى أقاربه ، وأصحابه ، بكلمات ، وعبارات بث فيها لموعة قلبه ، وترنح بها في عسارات مؤثرة-كترنح الذبيح . هذا هو رثاء الأشخاص أما ما نريد الحديث عنه ، وهو رثاء المدن في العصر العباسي الأول في المشرق العربي ، فقد توخيت أن أعرض هذا اللون الجديد . الذي عرف طريقه الى الشعر العربي لأول مرة ، نتيجة لظروف العصر ، وأحداثه ، وما كان أدب العرب ، ولا شعرهم في زمن من أزمانهم بمعزل عن قضايا تاريخهم المجيدة ، وان كل قصيدة من قصائدهم مرتبطة بحدث يمت الى التاريخ ، ويمسه من قريب ، أو بعيد وبالذات في عصور مجدها الذي راح الشاعر يصف فيه بأسها وبأس أهلها وبلاءهم أمام سطوة التاريخ ، ومنازع الأمم ، ومن هنا وجد اطار آخر تحرك فيه الرثاء بعيدا عن الشخصيات الآدميين ! وهو « رثاء المدن » . وهذا الاطار جديد تحرك فيه هذا الفن في العصر العباسي ، الأول ، لأسباب ، ودواع بعضها يتعلق بالنقل الحضارية في العصر العباسي اذ أصبحت المدينة تمثل كيانا له معنى ، ووجود في نفوس أهلها ، وأن أهلها قد صاروا تربطهم بها روابط كثيرة مادية ، ومعنوية ، مما جعلهم يشعرون ازاء مدنها بالشعور الانساني النبيل ، هذا الى جانب ظهور الفتن والثورات التي حدثت في ذلك العصر ولاسيما هذه الفتنة التي كانت بين « الأميين » و « المأمون » والتي انتهت بدمار « بغداد » والواقع أن الشعر في هذا العصر لم يعيش بمعزل عن تلك الأحداث التي عاشتها « بغداد » فقد حركت تلك الفتنة أحاسيس الشعراء ، وأهاجت مشاعرهم فصوروا هذه المأساة الأليمة في قصائد تبكى الوطن ، وقد احتفظت لنا مصادر الأدب بكثير من هذه القصائد التي سجلت وقائع الأحداث الأليمة التي عاشتها مدن العراق أيام الفتنة ، وذلك في المرحلة التي نشب فيها الصراع بين « الأميين » و « المأمون » فقد حاصرت جيوش المأمون « بغداد » وأحرقها قائده أثناء حصاره « للأميين » وصوب عليها مجانيقه فتحولت نارا أتت على كل شيء فيها

وكان قصورها التي طالما أشاد بها الشعراء لم تكن شيئا مذكورا وأثرت هذه للاحادثة المفجعة في قلوب كثير من الشعراء ، وقبل أن نمضي في ذكر هذه القصائد التي توضح هذا اللون من الرثاء ، وآفاقه الجديدة في المشرق العربي ، نلقى بعض الأضواء على أحداث هذا العصر كي نقف على الخطوط الأساسية لسياسته ونتعرف على الدوافع، والملايسات، التي دفعت الشعراء الى هذا اللون الجديد الذي عرف طريقه الى الشعر العربي لأول مرة .

« دلائل من أحداث العصر في عهد المأمون »

لقد شهد عصر « المأمون » كثيرا من الأحداث السياسية التي لعبت دورا هاما في الأدب ، والشعر بصفة خاصة فقد اهتم الشعراء في هذا العصر بتسجيل الحوادث الهامة في أشعارهم ، وكان من المظاهر الكبرى التي نجدها في أشعارهم صلته بالتاريخ يدونونه ، ويصورون فيه ما يدور على مسرح الحياة السياسية وما ظهر فيها من فتن ، وقلاقل بصدق ، وأمانة والى جانب هذا وجدناهم أيضا يصورون مشاعرهم ، ويسجلون أحاسيسهم ازاء هذه الحوادث والفتن والنكبات وكأنهم أحسوا أنهم يصنعون تاريخا فأرادوا تخليده ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن هذه الأشعار كانت فخرا لهم ووفاء وحبا لوطنهم وبلادهم العظيم، فقد كانت أشعارهم أنات سمعها التاريخ يوم دمار « بغداد » وفتنتها واحراق « البصرة » ودمارها وما شاكل ذلك من الأحداث الكبرى في المشرق العربي .

كل ذلك قد مثله الشعر تمثيلا دقيقا ولم يقف فيه الشعر عند الجانب الحسى فقط بل تجاوزه الى تدوين المشاعر والأحاسيس ولا شك أن « على صفحة الشعر المتألقة تتحدد قسما الحياة ، وترتسم صور المجتمع وفي مرآته المجلوة تتعاقب الخلجات النفسية التي هي حقيقتها أصداء تلك الحياة وتمثيل لواقع ذلك المجتمع فالشعر الصادق هو ما

عبر عن مجتمعه ، وأفصح عن مدى انفعال الشاعر ، وتأثره بكل ما
يجرى حوله «(٤)» •

والصياغة الشعرية دائما تستقر في البيئة ، وتعبر عنها ، كما تسجل
خطرات الحياة ، وواقعها وتجاربها ، وأثرها في نفس الشاعر وبهذا
يصبح الشعر بحق مرآة للنفس قائله ، وتصبح نفسه مرآة لشعوره
فالشعر هو : لغة النفس فحين تصفو النفس ، وتروق ، وتساسس ينتج
عنها حصاد سلس رائق وعندما تتكد وتثقبض ، وتكفهر ينتج عنها
حصاد كدر ، مكفهر باكى حزين مثل هذا اللون الذي نحن بصدد
الحديث عنه وعلى هذا الأساس كان الشعر في هذه الحقبة صورة للحياة
بكل ما حدث فيها فالإنسان ابن البيئة يتأثر بما يحيط به ، وبالذات
الأديب ، لأن الأدب « وتر حساس يتأثر بالحياة من حوله ، ويستجيب
لما حوله من أحداث ومؤثرات » •

فالشعر يصور الحياة بكل جوانبها ويعبر عن آمال أمة وآلامها
وقد يتفوق الشعر في هذا المجال عن التاريخ وقد يكون «(٥)» أدق
تصويرا للحياة لأنه يتناول ما يهمله التاريخ «(٦)» ممزوجا بالشاعر
والأحاسيس النفسية من خلال انفعال الشاعر بما يدور حوله من
أحداث فيصورها وينقلها إلينا ومن هذه الأحداث الفتنة التي كانت
« ببغداد » في عصر « المأمون » إذ كثرت الأحداث وتفجرت الثورات
فالأوضاع السياسية التي مرت بها هذه المدينة منذ تولى الأمين العرش

(٤) دراسات في تاريخ الأدب العربي في أزهى عصوره ص ٣٧ •

(٥) الشعر في عصر المأمون ص ١٤ د على طلب - مطبعة الأمانة

الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م •

(٦) الحياة العربية من خلال الشعر الجاهلي ص ٣ د أحمد الحوفي -

الهيئة المصرية العامة القاهرة ط سنة ١٩٧٢ •

وصار خليفة للمسلمين تميزت بالحدة ، والعنف ، وعاشت « بغداد » في صراعات وحروب وكل ذلك كان له عميق الأثر في نفسية الشعراء وأقرب مثال لهذا هو ما ذكره الشعراء في رثاء هذه المدينة عندما بدأت الأحداث بها اذ راحوا يصورون الأوضاع السياسية أصدق تصوير وينقلون مشاعرهم تجاه بلدهم العظيم « بغداد » حيث بدأ الشعراء يحسون بالقلق والخوف من المجهول الذي يخبئه الغيب فعكفوا على رثائها بأصدق المشاعر وأبلغ العبارات ، وبداية الأحداث كانت عندما ولي الرشيد ابنه « محمد الأمين » العهد من بعده وترك ابنه « عبد الله المأمون » (٧) فمنذ هذه اللحظة انقسم لاعباسيون فبعضهم أيد هذا ، والبعض الآخر عارض ، وعندما أحسن الرشيد بخطر هذه البيعة بدأ يفكر في كيفية الخروج من هذا المأزق اذ أن « المأمون كان أكبر من الأمين بستة أشهر » (٨) * فأخذ يفكر في كيفية تحويلها الى المأمون ، وبعد التفكير ، والمشورة بايع « للمأمون » بعد « الأمين » واعتقد بهذا أنه خرج مما وقع فيه اذ انه ولي العهد لابنيه ، « الأمين » ثم « المأمون » ولكن كانت هذه هي نقطة البداية ، في الفتنة ، والخلاف ، الذي نشأ في هذا العصر وكان من الطبيعي ألا تستقيم الأحوال ، وتسير الأمور ، في مسارها الطبيعي ، ولذا كان من نتائجها ، حرق بغداد ، وتخريبها من جراء هذه البيعة ، وينقل لنا بعض المؤرخين قصة اختيار الرشيد لولي عهده فيقول : « فاتفق وأنا بالخاوة معه أن يدخل عليه خادمه العبد ، فتفرسه الرشيد ، وقال له ما وراءك يا مسرور ؟ فقال : ما تحب يا أمير المؤمنين ... فأوماً اليه بالدنو فألقى في أذنه كلاماً ثم تنحى فقال لى الرشيد : هذا خادمنا الأمين .. سرنا في أمر مما أخذه من

(٧) راجع الطبري ج ٨ ص ٤٤١ دار المعارف تحقيق محمد

أبو الفضل سنة ١٩٧٧ م .

(٨) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٩٦ .

تقديم « الأمين » على « المأمون » بالولاية لأننا نرضى سيرته ونأمن
ضعفه ونعرف فيه حزم المنصور، ونسك « المهدي » وعزة نفس الهادي»
مع أن بنى هاشم يميلون الى الأمين وأنشد :

أخاف القواء الأمر بعد استوائه وأن ينقض الحبل الذي كان أبرما
ثم يقول : فلما رأيت بلوغ القلق في نفسه من هذا الأمر تقدمت
اليه في ما تقدم ٠٠٠ من مبايعة المولد بعد الآخر « (٩) »
وبعد أن أن توفي « الرشيد » في جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين
ومائة (١٠) .

تولى ابنه « الأمين » وكان صغير السن ، كما كانت تنقصه الخبرة
السياسية والخبرة في شئون الادارة (١١) ، وقد انعكس كل هذا على
حياته السياسية ، ولقد بويغ أبو عبد الله محمد الأمين في اليوم الذي
مات فيه « الرشيد » وهو يوم السبت في جمادى الآخر سنة ثلاث
وتسعين ومائة « (١٢) » وبدأت حياته بالاضطراب وعدم الاستقرار في
حياته التي انتهت بقتله وضياع سلطانه « يوم الأحد لخمس بقين من
المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة ، ودفنت جثته ببغداد ، وحمل رأسه
الى خراسان ، وكانت خلافته أربع سنين وسنة أشهر وأياما صفا له
الأمر من جملتها سنين ، وشهرا ، وكانت الفتنة بينه وبين أخيه
سنين « (١٣) » .

- (٩) حضارة الاسلام في دار العلوم ص ٩٤ . جميلة نخلة المدور -
دار المعارف العمومية طبعة سنة ١٩٣٥ م .
(١٠) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٤١ ، العقد الفريد ج ٣ ص ٤٤
(١١) نظرات حول العصر العباسي الأول ص ١٢٠ د عبد المقصود
نصار . دار الطباعة المحمدية القاهرة سنة ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .
(١٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٩٥ دار الفكر تحقيق محمد
محيي الدين ، العقد الفريد ج ٣ ص ٤٥ .
(١٣) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٩٦ دار الفكر تحقيق محمد
محيي الدين ، العقد الفريد ج ٣ ص ٤٥ .

وقد اتسم عصر الأمين بأحداث رهيبة ، واضطرابات جسيمة ، وكان سبب هذا الصراع بين الأخوين يرجع الى وقوع الأمين تحت سلطان حاشية السوء الذين قاموا بدور خطير في اثارة الفتنة بين الأخوين و مرجع ذلك أن الخلاف الذي حدث بينهما اصطبغ باللون العنصرى اذ أن التنافس فى الأصل كان بين العرب ، والفرس — وليس بين الأمين والمأمون — فالأمين أمه هاشمية وهى « زبيدة » بنت أبى جعفر المنصور والمأمون أمه فارسية وهى « مراجل » (١٤) •

ومن هنا بدأ النزاع بين الأخوين فى المظاهر ! ولكن الحقيقة هو نزاع بين الفرس (أنصار «المأمون») وبين العرب أنصار «الأمين» وقاد هذا النزاع « الفضل بن سهل » وزير « المأمون » وهو فارسى ، « والفضل بن الربيع » وزير « الأمين » وهو عربى (١٥) • فالفضل ابن الربيع كان يخشى على نفسه اذا ما تولى المأمون الخلافة وقد أخذت حاشية الأمين تغريه بخلع أخيه المأمون وجعل البيعة لابنه « موسى » ومازالوا « بالأمين » حتى مال الى رأيهم واستجاب لهم وفى ذلك يقول ابن الأثير : « ولما شرع « الأمين » فى « خلع المأمون » استدعاه الى بغداد ليقرر على نفسه بالخلع ... واعتذر « المأمون » عن الحضور وكثرت المكاتبات بينهما حتى كاد المأمون أن يوافق على نفسه الا أن الفضل بن سهل وزير المأمون شجعه على الامتناع » (١٦) ، وهذا ما يؤكد أن الخلاف كان مرجعه الى التنافس بين العنصر العربى، والعنصر الفارسى ، فالفضل بن سهل كان يتمنى أن تكون « مرو » حاضرة الخلافة وعاصمتها بدلا من بغداد وبهذا تعود لخراسان عظمتها ومجدها

(١٤) راجع مروج الذهب ج ٣ ص ٣٩٦ •

(١٥) راجع نظرات حول العصر العباسى الأول ص ١٢٤

• عبد المقصود •

(١٦) انظر الكامل ج ٥ ص ١٤٠ لابن الأثير •

التي كانت تفخر بها على العرب قبل الفتح الاسلامي (١٧) * وما كان له الاثر الأكبر في ظهور النزاع وكيف بدأ الصراع أن المأمون كان قد اشتهر اثناء حياته في خراسان بالتقوى والصلاح وحسن السيرة وعندما ظهرت بوادر الخلاف بين الأمين والمأمون أخذ الفضل بن سهل في استمالة الناس لاي المأمون فاستجابوا له وقبضوا على أعوان الأمين في خراسان ومنذ هذه اللحظة أخذ الموقف لونا جديدا من الصراع والتنافس ، فبعد أن كان الصراع بالكلام في المكتبات ، بدأ السيف يأخذ طريقه في هذا النزاع ، ويفصل بين الأخوين ، ونهض « الفضل ابن سهل » وزير « المأمون » واستمال له الناس وضبط الثغور والاستعداد لمواجهة الأحداث « (١٨) وبدأ كل من « الأمين » ، و « المأمون » في الاستعداد الحربي ، وجهز « المأمون » جيشا كبيرا وجعل عليه « طاهر بن الحسين » لحراسة الحدود الغربية لخراسان وحمايتها ، أما « الأمين » فقد استعد بجيش مسلح وجعل عليه « علي بن عيسى بن ماهان » وقد ولاه الأمين كور الجبل كلها : « نهاوند » و همدان ، و قم ، وأصفهان والتقى الفريقان عند مدينة « الري » واقتتلوا قتالا مريرا الى أن أسفرت المعركة عن نصر عظيم لقوات المأمون بقيادة طاهر بن الحسين الذي مزق جيش الخلافة شرا ممزقا بعد أن قتل قائد جيش الأمين « ابن ماهان » وسقط صريعا في ميدان المعركة وقد انضم الكثير من جيش « الأمين » الى جيش أخيه « المأمون » مما ساعد على تقوية جيش « المأمون » ووصلت هذه الأخبار المزعجة الى الفضل بن الربيع فاهتز ألما لما حدث ، ثم فكر

(١٧) راجع نظرات حول العصر العباسي الأول ص ١٢٦

د. عبد المقصود .

(١٨) راجع العصر العباسي الأول ص ٢٨ د. شوقي ضيف -

دار المعارف سنة ١٩٧٨ م .

الأمين وسارع بارسال عدة جيوش لمقاتلة طاهر بن الحسين وجعل على رأسهم عبد الرحمن بن جبالة الأنباري (١٩) ، والتقى الفريقان بهمدان واشتبكا في معركة حامية انتهت بفوز جيش المأمون والاستيلاء على همدان وقزوين وغيرهما من المدن المجاورة وخضعت كل بلاد الجبل وتم الاستيلاء عليها وكان نصرا ثانيا لطاهر على قوات الخليفة الأمين ولما رجعت فلول الجيش المنهزم الى بغداد اضطربت فيها الأمور وكثرت المخاوف وأصبح الأمين في صورة مهزوزة يغشاها الاضطراب وتسيطر عليها الهزيمة .

وأراد المأمون أن يضع حدا لهذا الصراع الدموي بين جيوش المسلمين فجمع جيشا كبيرا وقسمه الى قسمين قسم مع « هرثمة بن أعين » يقصد بغداد من ناحية الشرق ، وقسم مع طاهر بن الحسين يقصدها من ناحية الأهواز والبصرة واتجه الجيشان نحو الغاية المطلوبة (٢٠) .

واجتمعت جيوش طاهر وهرثمة حول « بغداد » وحاصرتها وقاست المدينة العظيمة كثيرا من الخراب والدمار وسفك الدماء والمهدم والتحريق واشعال النيران فيها وتعطلت العبادة في مساجدها ويصور المسعودي ما حدث لبغداد وما نزل بأهلها فيقول : « خربت الديار وعفت الآثار وغلت الأسعار ... وقاتل الأخ أخاه والابن أباه وانتهبت الأموال وهدمت المنازل وأحرقت الديار » (٢١) وكانت نهاية الأمين بعد أن طال الحصار عليه واستشار أصحابه ومن بقى من قواده فأشار بعضهم بطلب الأمان لنفسه من هرثمة بن أعين ويسلم له ويبيع أخاه

(١٩) راجع نظرات في العصر العباسي الأول ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢٠) راجع نظرات حول العصر العباسي الأول ص ١٢٨ د. عبدالمقصود

(٢١) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٠٨ تحقيق الشيخ محمد محيي الدين

المأمون وكتب اني هرثمة فأجابه الى ما طلب وعندما خرج الأمين وركب سفينة سارت به في نهر دجلة الى الضفة الأخرى أدركه أصحاب طاهر فأسروه وقتلوه وقطعوا رأسه وحملوه الى خراسان وكان سنة في ذلك الوقت ثلاث وثلاثين سية وستة أشهر وثلاث عشرة يوماً (٢٢) • وذلك في سنة ثمان وتسعين ومائة يوم الأحد لخمس بقين من المحرم (٢٣) وقد كتب طاهر الى المأمون يخبره بما فعل فحزن لقتل أخيه حزناً شديداً وبهذا انتهت هذه المأساة التي أحدثت صدعا في بناء الخلافة وأراقت دماء غزيرة (٢٤) • مما دفع الشعراء للتأثر بكل هذه الأحداث التي دارت في بغداد « ولقد بكأها الشعراء في شعرهم بشعر يفيض حزناً وحسرة وألماً يصدر عن عاطفة موجعة وقلب مفعم بالآلام والأحزان » (٢٥) •

ولعل هذا العرض السريع الموجز يَدَوِّنُ قد رسم صورة واضحة لعصر الأمين الذي قدمه الرشيد على أخيه المأمون اذ لم تكن أمه هاشمية فكان يخشى وقوع الفتن وزوال الخلافة عنهما الى الواقفين لها من أهل البيت أو الى من كان أقرب الهاشميين الى استخلاف أبي العباس فان عم عم الرشيد الى ثلاثة أعمام حاضرون • فعبد الصمد بن علي عم العباس بن محمد والعباس عم سليمان بن المنصور وسليمان ابن عم هارون وهؤلاء هم المرتقبون للخلافة والواقفون لها بالمرصاد (٢٦) •

ولكن أبى الله الا أن تحدث الفتنة وتبدأ الحرب بين الأمين ،

(٢٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٩٦ •

(٢٣) العقد الفريد ج ٣ ص ٤٥ •

(٢٤) راجع نظرات حول العصر العباسي الأول ص ١٣٣ • عبدالمقصود

(٢٥) الشعر في عصر المأمون ص ١٩ • علي طلب •

(٢٦) راجع حضارة الاسلام في دار السلام ص ٩٦ •

والمأمون وينجم عنها ما نجم من الدمار والخراب الذى لحق بمدن العراق وبالذات بغداد والذى أريد أن استنتجه من ذلك كله أن هذا الصراع الذى حدث بين الأخوين لم يكن مرجعه الحصول على الخلافة — فيما أرى — وإنما هو صراع وحرب بين العرب والفرس هذه الحرب التى انتهت بقتل الأمين • وتولى « عبد الله المأمون » بن هارون بعد قتل أخيه يوم الخميس لخمس خلون من صفر سنة ثمان وتسعين ومائة • • • وكانت مدته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً وتوفي سنة ثمانى عشرة ومائتين لثمان خلون من رجب ودفن بطريوس (٢٧) •

ونكتفى مضطرين بهذا العرض حرصا على الإيجاز ، ونعيد ما قلناه وهو أن الشعر فى العصر العباسى الأول كان صورة لحياة العصر « فما حياة الشعراء فى العصر العباسى الا صورة من حياة العصر قد تكون هذه الصورة مكبرة نوعا ما وهذا طبيعى لأن الشاعر أو قـل الفنان أول من ينقاد لعواطفه وليس الشاعر شاعرا ولا الفنان فنانا — فى الغالب الأعم — الا بفيض عواطفه وغلبة مشاعره » (٢٨) •

والآن مع بعض الصور التى رسمها الشعراء فى تصوير أكبر حدث هز كيان الدولة الإسلامية والدولة العباسية بصفة خاصة وهو حرق بغداد حاضرة الخلافة ومقرها ورميها بالذنـط والنيران والمجانيق حتى أصبحت رمادا أو خرابا • ومنذ هذه اللحظة بدأ الشعراء يـكون هذه المدينة بأصدق الأشعار وأخلدها لأنها تصور واقعا ملموسا وتعبّر عن تجربة صادقة عاشها الشاعر بنفسه وعبر عنها بشعره الذى وجد فيه

(٢٧) العقد الفريد ج ٣ ص ٤٥ الطبعة الأولى سنة ١٣٢١ هـ •

(٢٨) المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى فى العصر الأول ص ١٦٩

د. عزيز فهمى تحقيق محمد قنديل دار المعارف •

عزاء عما أصاب هذه المدينة ولم يهدف من ورائه جاها ولا سلطانا ولا
مالا ولا رضاء من أحد وإنما كان الذي يعنيه هو العزاء لأنه يجد فيه
صدى لعاطفته واحساسه وروحه .

ولقد كانت قصيدة الشاعر أبي يعقوب اسحاق الخريمي في رثاء
بغداد أطول وأهم قصيدة رثى بها شاعر عربي مدينة من المدن فقد
أورد الطبري منها مائة وخمسة وثلاثين بيتا وقد بدأ بقوله (٢٩) :

قالوا : ولم يلعب الزمان ببعث

داد وتعثّر بها عواثرها

اذ هي مثل العروس باطنها

مشقوق لفتى وظاهرها

جنة خلاد ودار مغبطة

قل من النائبات واترها

درت خلوف الدنيا لساكنها

وقل معسورها وعاسرها

وانفجرت بالنعيم وانتجعت

غيها بلذاتها حواضرها

فالقوم منها في روضة أنف

أشرق غب القطار زاهرها

لقد بدأ الشاعر قصيدته بهذا المطلع الذي بدأ يصف فيه مدينة
بغداد في روعتها وفنتتها وجمالها قبل أن تنزل بها الكوارث وتحدق بها
الفتن وتحل بها النكبات وقوله « قالوا » في مستهلها يدل على أن الشاعر

أراد أن يستخدم أسلوب الرواة فيحكى لنا قصة هذه المدينة في حالى
نعيمها وبؤسها • وهكذا مضى الشاعر يصف بغداد فقد كانت كالعروس
جميلة في مظهرها عظيمة في مخبرها جذابة بحسنها وأهلها يروحون
ويغدون ويمرحون ويفرحون تملأ قلوبهم الغبطة والسعادة ويعيشون
فيها حياة تملؤها البهجة ، ونم يعكر صفوها الكدر بل هى جنة الله فى أرضه
سعدوا بها وبجمالها وسعدت بملوكها وعظمتها ، وقد صورهم الشاعر
ووصفهم بأنهم :

أهل العلا والندى وأندية الـ الفخر اذا عدت مفاخرها

ويمضى الشاعر فى ذكر صفات هذه المدينة المزدانة بملوكها
وخلفائها الذى جمعت كل اسباب الحياة الناعمة المشرقة • ولكن
سرعان ما يعود الشاعر ويذكر لنا ما صارت اليه بغداد حيث يتبع فى
قصيدته اسلوب الموازنة بين صورة بغداد المشرقة قبل نكبتها ثم ينظر
الى الصورة الجديدة التى آلت اليها هذه المدينة بعد الأحداث •
والشاعر يهدف من وراء ذلك الى استخدام الصور التى تثير النفس
الانسانية وتفجر المشاعر المكبوتة من جراء هذه المأساة التى حلت
ببغداد وعلى هذا النحو يمضى الشاعر فى جمعه بين الأضداد والمتناقضات
فيقول (٣٠) :

ياها رأيت الأملاك ما صنعت
اذ لم يراها بالنصح زاجرها
أورد أملاكنا نفوسهم
هوة غى أعيت مصادرها

ما ضرها لو وفّت بموثقها
 واستحكمت في التقى بصائرهما
 يا هل رأيت الجنان زاهرة
 يروق عين البصير زاهرها
 وهل رأيت القصور شارة
 تكن مثل الدمى معاصرهما
 وهل رأيت القوى التي غرس الـ
 أملاك مخضرة دسائرهما
 محفوفة بالكروم والنخل والر
 يحان ما يستقل طائرهما
 فانها أصبحت خلأيا من الـ
 انسان قد أدميت محاجرهما
 قفرا خلاء تعوى الكلاب بها
 ينكر منها الرسوم زائرهما
 وأصبح البؤس ما يفارقها
 الفالها والسرور هاجرهما

والشاعر في هذه الأبيات يصور ما كان ببغداد من طبيعة جميلة تكثر
 فيها الحدائق والبساتين اليبانة الجميلة التي تسر الناظرين ببهجتها
 وتريح النفس بهوائها وطبيعتها • هكذا كانت بغداد ساحرة
 بمناظرها تكثر فيها القصور العالية الشاهقة البنيان مزدانة بالنساء
 الفاتنات المنعمات • وينتقل الشاعر الى القرى المجاورة لبغداد ويصف
 ما كان فيها من نخيل وأشجار ورياحين تقفن الخائفاء في غرسها
 وتعهدها حتى صارت صورة مشرقة يأبى اليها الانسان ويجد فيها
 ومتعته ثم بعد ذلك يعود الشاعر ويذكر لنا ما حدث فيقول لقد اختفى
 كل مظهر من مظاهر الجمال حتى الانسان تركها وفر هاربا منها بسبب

تلك النكبة التي حدثت لها وصيرتها خراباً وخلاء موحشاً وسكنتها الكلاب
المضالة فلا يسمع فيها إلا عواؤها ودرست معالمها فلا تكاد العين تتعرف
على شيء منها لكثرة ما ضاع من معالم هذه المدينة ولقد حل بها
البؤس وأصبح لا يفارقها بل صار هو الأليف لها في وضعها الجديد بعد
أن هجرها السرور والفرح وبالجمله فان الشاعر في البيت الأخير يريد
أن يقول لقد تحول العز والنعيم الى بؤس وشقاء بكل ما تعنيه هذه
الكلمات فالشاعر يتحسر على بغداد وأحياء بغداد في لون من الموازنة
جديد فيقول (٣١) :

أين الأطباء والأبكار في روضة الـ

ملك تهادى بها غرائزها

أين غصاراتها ولذاتها

وأين محبوبها وحابرها

فأين رقصاتها وزامرها

يجبن حيث انتهت حناجرها

تكاد أسماعهم تسك اذا

عارض عيدانها مزاهرها

ويمضى في رسم الصورة المشرقة لكى ينهيها بصورة الخراب والدمار

فيقول :

أمت كجوف الحمار خالية يسعها بالجحيم ساعرها

وكما هو مقرر في التصور الاسلامى أن الله تعالى انما يهلك القري
بظلمها راح الشاعر يتمثل تلك النكبة التي حلت ببغداد بوصفه عقاباً لها

ولأهلها بسبب بعدها عن الدين وميلها الى الانحراف والتفريط كل ذلك وصفه الشاعر في نيرة آسية ولوعة صادقة وصور خلالها تلك الفتنة تصويرا دقيقا مسهبا حتى لتبدو أمام العين عند قراءتها عندها يقول (٣٢) •

يا بؤس بغداد دار مملكة
دارت على أهلها دوائرها
أمهلها الله ثم أعقبها
لما أحاطت بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق وبال
حرب التي أصبحت تساورها
كم قد رأينا من المعاصي ببغداد
فهل ذو الجلال غفرها
حلت ببغداد وهي آمنة
داهية لم تكن تحاذرها
وطالعهما السوء من مطالعها
وَأدركت أهلها جرائرها
رق بها الدين واستخف بذي ال
فضل وعز النساك فاجرها
وخطم العبد أنف سيده
بالرغم واستعبدت حرائرها

هكذا يذكر الشاعر شقاء بغداد وكيف دارت بها وبأهلها الدوائر بعد أن أمهلها الله حقبة من الزمن أنزل بها أقسى ألوان العقاب وهو

الخسف والقذف والحريق والخراب بسبب الحروب وقد كانت في يوم
من الأيام آمنة مطمئنة ولم تكن تتصور في يوم من الأيام أن يأتيها
الحذر من مأمنها وإنما سوء الحظ لازمها بسبب ضعف دين أهلها
واستخفافهم بذوى الفضل وقلة العباد وكثرة الفجار وشتان ما بين
حال بغداد بالأمس وحالها اليوم بعد الفتنة التي تركتها أشلاء وحطاما
ويصور الشاعر تلك النهاية الحزينة ويمضى في هذه النغمة فيلخص
ما حل بالمدينة في صورة مجملّة فيقول (٣٣) :

من ير بغداد والجنود بها
قد ربقت حولها عساكرها
يحرقها ذا وذاك يهدمها
ويشتفى بالنهاش شاطرها

فالفریقان المتحاربان اجتمعا على تدميرها بالحرق والهدم وقد
وجد الأعداء الفرصة سانحة للنهب والسلب • وبعد أن استوفى الشاعر
مقارنته بين المدينة في حال عزها ومجدها وبينها في حال بؤسها أخذ
يرسم صورة حية لحالة المدينة التي صارت مستباحة وسيطر عليها
الهلح والفرع الذي أصاب الناس رجالا كانوا أم نساء صغارا كانوا
أم كبارا فقال (٣٤) :

بل هل رأيت السيوف مصنطة
أشهرها في الأسواق شاهرها

(٣٣) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٤٥١ دار المعارف تحقيق محمد
أبو الفضل سنة ١٩٧٧ م •

(٣٤) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٤٥٢ دار المعارف تحقيق محمد
أبو الفضل سنة ١٩٧٧ م

والخيل تستن في رزقها
 بالتروك مسنونة خناجرها
 والنفط والنار في طرائقها
 وهابيا للدخان عامرها
 والنهب تعدو به الرجال وقد
 أبدت خلاخلها حرائرها
 معصويات وسط الأرقعة قد
 أبرزها للعيون سائرها
 كل رقود الضحى مخبأة
 لم تبد في أهلها محاجرها
 بيضة خدر مكنونة برزت
 للناس منشورة غدائرها
 تعثر في ثوبها وتعجلها
 كبة خيل ريعت حوافرها
 تسأل أين الطريق؟ والهة
 والنار من خلفها تبادرها
 لم تجتل الشمس حسن بهجتها
 حتى اجتلتها حرب تباشرها
 يا هل رأيت الثكلي مولولة
 في الطرق تسعى والجهد باهرها
 في اثر نعش عليه واحدها
 في صدره طعنة يساورها
 تنظر في وجهه وتهتف بالث
 كل وجارى الدموع حادرها
 غرغر بالنفس ثم أسلمها
 مطلولة لا يخاف سائرها

والشاعر يصور الخيل وهي تعدو في الأسواق وعليها الأعداء
شاهري السيوف وحاملى الخناجر والنفط والنيران في الشوارع والحارات
وقد انعقد الدخان التي تجمع وصار سحابا أسود في وسط هذا الظلام
مما ساعد اللصوص على الهرب بما انتهبوه • أما النساء الحرائر فقد
خرجن مذ عورات من منازلهن حاسرات الرؤس وقد نشرن شعورهن
بعد ان كن محجبات في خدورهن لا يراهن أحد ولا تنتظر اليهن عين
ولكن هول هذه الحرب جعلهن يخرجن بهذه الصورة يتعثرن في ثيابهن
من شدة السرعة مزاحمة الخيل في الشوارع تسأل ولا مجيب والنار
تلاحقها من خلفها في الطريق تكاد تمتد اليها والى جانب هذا نجد صورة
أخرى يرسمها الشاعر لامرأة ثكلى حزينة تسير في الطريق وتبكي وتناول
وقد وصل بها الارهاق مبلغه وكيف لا وهي تسير خلف نعش حمل عليه
ولدها مصابا بطعنة في صدره من الأعداء وهناك صورة ثالثة لامرأة
تتظر الى وجه ابنها وهو يعاني سكرات الموت وتصرخ نادبة حظها والدموع
تنحدر من عيناها وهي ترى ابنها يلتقط أنفاسه الأخيرة اذ بلغت روحه
الحلقوم انها حشرة الموت التي على أثرها يفارق الحياة ويموت قتيلا
ولا قصاص ولا دية هكذا كان أهل بغداد وما حل بهم ويمضى الشاعر
في رسم الصور المثيرة التي تبعث الأسى والحسرة فيقول (٣٥) :

وقد رأيت الفتيان في عرصة الـ

معرك مغفورة مناخرها

كل فتى مانع حقيقته

تشقى به في الوغى مساعرها

باتت عليه الكلاب تنهشه

مخضوبة من دم أظافرها

أما رأيت الخيول جائلة
 بالقوم منكوبة دوائرها
 تعثر بالأوجه الحسان من الـ
 قتلى وغلّت دما شاعرها
 يطأن أكباد فتية نجد
 يفلق هاماتهم دوائرها
 أما رأيت النساء تحت المجا
 نيق تعادى شعنا ضفائرها
 عقائل القوم والعجائز والـ
 غنس لم تختبر معاصرها
 يحملن قوتا من الطحين على الـ
 أكثاف معصوبة معاجرها
 تسأل عن أهلها وقد سلبت
 وابتذ عن رأسها غفائرها
 يا ليت شعري والدهر ذو دول
 يرجى وأخرى تخشى بواذرها
 هل ترجعن أرضنا كما غنيت
 وقد تناهت بنا مصايرها
 لا طمعا قلتها ولا بطرا
 لكل نفس هوى يؤامرها
 سيرها الله بالنصيحة والـ
 خشية فاستدمجت مرائرها
 جاءتك تحكى لك الأمور كما
 ينشر بـز التجار ناشرها

وبعد فالقصيدة مثال واضح لشعر الرثاء الجيد الذي وفر له الشاعر كل عناصر النص الكامل من الفكرة والأسلوب والتجربة الشعورية والخيال . فالفكرة نابغة من واقع ملموس وحقيقة ثابتة وهي فكرة الدمار والخراب الذي حدث لبغداد وأهلها والذي كان له أثره البالغ على المدينة فأوحى للشاعر بهذه الفكرة التي تدور حول مأساة شاعر باغنته الأحداث في وطنه الحبيب الذي عاش فيه ونعم بخيراته ودرج على ترابه وتغذى بطعامه وتنفس من هوائه ولهذا كان رثاء الشاعر لمدينته رثاء صادقا معبرا عن تجربة عاشها وتعايش معها فانفعل بها واستجاب لها وكشف عنها بأسلوب وكلمات تلائم تلك التجربة لأن « حسن اختيار الكلمات الموحية بطققتها وجرسها ومعناها يعد أول خطوة من البناء الفني وأن تأثير الكلمات يتفاوت قوة وضعفا تبعا لنوعها لأن هذه النوعية تلعب دورا مهما في الإيحاء برؤية الشاعر » (٢٦) . وكيف لا والشاعر يردد الصورة التي لحقت بمدينته إبان نكبتها والتي توضح « أن بغداد لقيت بسبب ذلك الصراع أشنع وأفدح خسارة لقيتها مدينة في حالة حرب مع عدو حقيقى » (٣٧) .

ويصور لنا المسعودى حالة المجتمع المضطرب في بغداد فيقول : « وخربت الديار وعفت الآثار وغلت الأسعار » ويذكر لنا من الشعراء الذين يكوا بغداد بكاء مزق القلوب تأثرا بهذه النكبة المريعة ومن أحسن ما قيل قول الأءشى (٣٨) :

تقطعت الأرحام بين العشائر
وأسلمهم أهل التقى والبصائر

(٣٦) النقد التطبيقي والموازنات ص ٢٦ د محمد الصادق عفيفي

(٣٧) في الشعر العباسي ص ٣٧٣ د عز الدين اسماعيل .

(٣٨) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٠٨ للمسعودى .

فذاك انتقام الله من خلقه بهم
 لما اجترموه من ركوب الكبائر
 فلا نحن أظهرنا من الذنب توبة
 ولا نحن أصلحنا فساد السرائر
 ولم نستقمع من واعظ ومذكر
 فينجع فينا وعظ ناه وأمر
 فابكى على الاسلام لما تقطعت
 رجاء ورجى كل كافر
 فأصبح بعض الناس يقتل بعضه
 فمن بين مقهور ذليل وقاهر
 فنبكى لقتلى من صديق ومن أخ
 كريم ومن جار شقيق مجاور
 ووالدة تبكى بحزن على ابنها
 فبيكى لها من رحمة كل طائر
 وذات حليل أصاحت وسمى أيم
 وتبكى عليه بالدموع البوادر
 تقول له قد كنت عزا وناصر
 فغيب عنى اليوم عزى وناصرى

والشاعر في هذه الأبيات يريد أن يبينه ويذكر أن ما حدث لهذه
 المدينة هو انتقام من الله لأهلها لما ارتكبوه من معاصي وذنوب تجلب
 سخط الله من جراء الكبائر التي كانت عيانا جهارا وقد تخلى أولو الأمر
 عن القيام بواجبهم نحو الرعية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
 وشغل كل انسان بنفسه وتقطعت عراهم وأصبح الكافر يجد أمنيته في
 الحاق الضرر بهذه الأمة الاسلامية بل وصار البعض يعتدى على البعض
 بالقتل والسب حتى الأخ مع أخيه لا مراعاة لحرمة ولا خوف من حساب
 فالشاعر يحزن كل الحزن على الدولة الاسلامية الممثلة في بغداد التي

فصابتها الويال والنكال بسبب القلق والفتن فلا رحمة لأُم تفقد ولدها
ولا لزوجة تفقد زوجها كل هذا صوره الشاعر في عبارات حمل الأسى
والحزن لهذه الأم الثكلى والزوجة التى صارت أرملة بلا عائل ولا حامى
ويستمر الشاعر فى رسم هذه المدينة المذعورة التى أصبح القتل والتشريد
والخراب والتدمير هو الطابع المسيطر عليها فيقول (٣٩) :

وابك لاحراق وهدم منازل
وقتل وانهباب اللهى والذخار
وابراز ربات الخدور حواسرا
خرجن بلا خمر ولا بمآزر
تراها حيارى ليس تعرف مذهبها
نوافر أمثال الطبباء النوافر

وأمام كل هذا لم يجد الشاعر بدا من البكاء فهو يبكى لاحراق
المدينة وما حدث فيها من قتل للأنفوس يبكى الشاعر وحق له البكاء
لما رآه من خروج النساء الحرائر حاسرات الرؤس عاريات الوجوه
بلا خمر ولا بمآزر يسترن عورتهم ومن هنا يمكن أن نتخيل مدى
الهول والفرع الذى جعل الشاعر مدينته برثاء صادق عن عاطفة جياشة
متألمة من خروج ربات المنازل من بيوتهن فى الطرقات لا يهتدين الى
طريق ولا يتعرفن على مكان يلجأن اليه فهن نوافر مثل الطبباء الشاذرة
كل ذلك حدث لبغداد وكأنها لم تكن كما ذكر الشاعر فى قوله (٤٠) :

كأن لم تكن بغداد أحسن منظرا
وملهى رأته عين لاه وناظرا

(٣٩) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٠٩ .

(٤٠) مروج الذهب ج ٣ ص ٤١٠ .

بلى هكذا كانت فأذهب حستها
 وبدد منها الشمل حكم المقادر
 وحل بهم ما حل بالناس قبلهم
 فأضحوا أحاديث لباد وحاصر
 أبغداد يا دار الملوك ومحتمى
 صروف المنايا مستقر المنابر
 ويا جنة الدنيا ويا مطلب الغنى
 ومستتب الأموال عند المتاجر
 أبينى لنا : أين الذين عهدتهم
 يلحون فى روض من العيش زاهر
 وأين ملوك فى المراكب تغتدى
 تشبه حسنا بالنجوم الزواهر
 وأين القضاة الحاكمون برأيهم
 لورد أمور مشكلات الأوامر
 أو القائلون : الناطقون بحكمه
 ووصف كلام من خطيب وشاعر
 فما للملوك الغر من آل هاشم
 وأشبائهم فيها اكتفوا بالمفاخر
 يروحون فى سلطانهم وكأنهم
 يروحون فى سلطان بعض العشائر
 تخاذل عما نالهم كبراً وهم
 فزالتمهم بالكبره أيدى الأصاغر
 فأقسم لو أن الملوك تناصروا
 لذلت لها خـوفا رقاب الجبابر (٤١)

فالشاعر في هذه الأبيات يذكر ماضى بغداد السعيد وما كان فيها من مناظر جميلة تتمتع الناظرين بجلال حسننها وبديع منظرها ثم يعود الى أسلوب الموازنة فيقول هكذا كانت في الماضى أما اليوم فقد ذهب حسننها وبدد مجالها وفرق جمعها وشقت شملها وهذا قدرها •

فقد أصبحت أثرا بعد عين وصارت حياتها قصصا وأحاديث تروى لأهل الحضر والبدو ولقد كانت بغداد بالأمس دارا للملوك والملك وقلعة يحتفى فيها الجميع اذا نزلت بهم صروف الدهر فهي مستقر للخلافة ومركزها وهذا ما جعل الشاعر يمضى في تحسره على دمار المدينة التي كانت جنة الله في أرضه ومطلب الغنى وملجأ الخائف وملأذ المحتاجين والضعفاء يلجأون اليها اذا نزلت بهم النوازل وحلت بهم الضرائر • ثم بعد كل هذا يشخصها ويطلب منها الجواب والتوضيح أين الذين عهدتهم يعيشون في رغد من العيش وسط الرياض الزاهرة والحياة اللاهية وأين الملوك ومواكبهم التي تشبه النجوم وأين القضاة الحاكمون برأيهم السديد الفاضل في مشكلات امور وأين الشعراء وأين الخطباء وأين الملوك من بنى هاشم وأتباعهم الذين لجأوا الى تقديم الأئذار والاكتفاء بها أين الملوك الذين دان لهم الجميع وصغر أمامهم كل كبير وانحنى لهم كل جبار عنيد كل هذا ذهب وضاع وقد صورته الشاعر بكلماته وعبر عنه بأسلوبه ولونه بشعوره واحساسه في عبارات موحية بما في داخل نفسه تجاه هذا الأمر الجلل الذى نزل ببغداد •

وفي نكبة بغداد هذه قال بعض فتيانها (٤٢) :

بكيتم دما على بغداد لما

فقدت غصارة العيش الأنيق

(٤٢) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٤٥٧ ، مروج الذهب للمسعودى

تبد لنا هموما من سرور
ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتها من الحساد عين
غأفنت أهلها بالمنجنيق
فقوم أحرقوا بالنار قصرا
ونائحة تنوح على طريق
وصائحة تنادى واصياحا
وباكية لفقدان الشفيق
وحوراء الدامع ذات دل
مضخمة المجاسد بالخلق
تفر من الحريق الى انتهاب
ووالدها يفر الى الحريق
وسالبة الغزالة مقتلتيها
مضاحكما كالألة البروق
حيارى كالهدايا مفكرات
عليهن القلائد في الحلق
ينادين الشفيق ولا شفيق
وقد فقد الشفيق من الشفيق
وقوم أخرجوا من ظل دنيا
متاعهم يباع بكل سوق
ومغترب قريب الدار ملقى
بلا رأس بقارعة الطريق
توسط من قتلاهم جميعا
فما يدرون من أى الفريق
فلا ولد يقيم على أبيه
وقد درب المحبيق بلا صديق

ومهما أنس من شيء تولى فانى ذاكر دار الرفيق

وهكذا كانت بغداد وهذا ما صارت اليه مما جعل الشعراء يكونونها
دما بدلا من الدمع لهول ما حل بها وبأهلها فالشاعر هنا رسم شريطا
بالخ الدقة والروعة في الاعراب عما آلت اليه المدينة والقصيدة مليئة
بالحركات واللقطات المعبرة عن أحوال الناس وما تنتطوى عليه
أحاسيسهم ومشاعرهم التي انعكست على سلوكهم من جراء ذلك الجحيم
الذى حل بهم وبأهلهم في بلادهم • فبعد غضارة العيش وألوان النعيم
في سرعة البرق تبدد وتبدل السرور بالهموم وتحول النعيم ورغدا
المعيش الى ضيق من جراء العين الحاسدة لهذه المدينة التي بلغت قمة
مجدها وروعة جمالها في عهد الرشيد والتي تحدث بعض الباحثين عن
جمالها في عهد الرشيد فقال :

« ولقد اكبرت من بغداد بلوغ العمران بما رأيت من ازدحام
الناس بأنحائها وتموجهم كالبحار في أرجائها يقال ان عددهم يزيد عن
ألف ألف وخمسمائة ألف وهذا جمع لم يكن مثله ولا قدر نصفه في
مدينة من العالم قط فانما يدل اجتماع الناس على هذا المقدر العظيم على
أن ليس في المادن أيمن ولا أيسر من الموضع الذي يتكفون به تكوف
الرمال ثم أعظمت بلوغ النعيم في أهلها بما رأيت من توفر أرباب الغايات
عندهم على الفنون التي لا تقتصر الحاجة منها على ضروريات العمران
وانما تتوسع المنفعة من صناعاتها ومصنوعاتها الى مطالب الترف الذي
يقع في الأمم عند استكمال دولتهم واستفحال أمرهم » (٤٣) •

ثم نعود الى رثاء هذه المدينة العظيمة ونستحضر الصورة التي يرسمها الشاعر لهذه المدينة وأهلها الذين منهم من فنى تحت ضربات المنجنيق ومنهم من أحرق بالنيران وهم محاصرون وفريق آخر أغرق في النهر وعليه النائحات تنوح ورابعة في جانب آخر تصيح وتتدب حظها وخامسة تبكى زوجها الشفيق وسادسة فتاة منعمة ذات جمال تفر من نار الى نار أشد وهى نار الفتك والسلب والاعتصاب وتتنظر الى والدها يقذف في النار وقد ذهب عقله بسبب الذعر فلم يجد أمامه طريقا غير النار والحريق وفقيات أخريات جميلات متلآلات خرجن في زينتهن لا يدرين ما يصنعن يولولن ويصحن بمن يشفق عليهن ولكن من يسمع ومن يجيب فى ذلك الهول العظيم الذى أشبهه يوم الحشر الذى قال فيه تبارك وتعالى « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته ربنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » (٤٤) ففى هذا اليوم يفترق الناس ويفتقد الشقيق شقيقه •

وقد خرج جماعة من دورهم بعد أن انتهت أموالهم وضاع متاعهم وصاروا بلا متاع ولا مال ثم يصور الشاعر ما رآه من الأجساد الملقاة على قارعة الطريق وقد قطعت منها الرؤوس وأصبح لا يعرف لها صاحب ولا تعرف من أى فريق فكلا الفريقين يحسبها من الفريق الآخر فترك في العراء بلا غطاء وكيف لا والولد لا يقيم مع أبيه ويفر الصديق من الصديق وتتهار كل العواطف وتقطع كل وشائج الصلات بين الأهل والأصدقاء وأخيرا ينهى الشاعر قصيدته بقوله ومهما أنس من الأشياء التى تمر بى فى حياتى فلن أنس هذا الدمار والخراب والاضطراب الذى نزل ببغداد •

حقا انها لغزية عن الشرح والتوضيح والكشف عن صدق الشاعر الذى تلاقت كلماته وعباراته بأحاسيسه ومشاعره التى فجرت كل هذه الشحنات فالشاعر ضمن قصيدته كثيرا من الكلمات التى تتمشى مع الجو النفسى وتتواءم مع ذلك الاحساس الذى ينتشر فيها يهيمن على أبيها يترك فى نفس من يقرأها أثرا حزينا ويتصاعد هذا الاحساس فى نفوسنا بعد الانتهاء من قراءة تلك الأبيات من جراء ذلك النغم الخافت الحزين وتلك الروح البائسة العاجزة عن أن تفعل شيئا وفيها ذلك الاحساس العميق الصادق فليس أمام الشاعر الا أن يصور احساسه وشعوره بأبيات باكية حزينة بعيدة عن التكلف والأغراض •

وهذه القصيدة توضح فجيعة الشاعر فى هذه المدينة التى صورها وصور ما حل بها من هتك ودمار جعل قلوب السكان فى رعب وخوف من هول ما حدث فلارحمة لطفل لأنه رضيع ولا لشيخ لأنه ضعيف ولا لفتاة لأنها عذراء ولا لامرأة لأنها أم • كل ذلك عبر عنه الشاعر واختار له من الكلمات : بكيت دما — أحرقوا بالنار — نائحة تتوح — صائحة تتادى — باكية لفقدان الشفيق — تفر من الحريق الى انتهاب فلا ولد يقيم على أبيه — وقد هرب الصديق من الصديق — الخ تلك الكلمات •

انها بلاشك صورة تثير المشاعر وتحرك العواطف ويكفى أنها تهمل تجربة واقعة عاشها الشاعر وأحس بها وكيف لا وهى بمثابة جرس الخطر الذى يعلن وينبه عما يحدث للمسلمين وبلادهم بعد ذلك •

ويقول شاعر آخر فى رثاء بغداد وهو عمرو بن عبد الملك العتري
الوراق :

يا رمة المنجنيق كلكم غير شفيق
ما تباون صديقا كان أو غير صديق

ويلكم تدرون ما نتر مون مرار الطريق
رب خلود ذات دل وهى كالغصن الوريق
أخرجت من جوف دنيا هاومن عيش أنيق
لم تجد من ذاك بدا أبرزت يوم الرحيق (٤٥)

فالشاعر يصور في هذه الأبيات حالة بغداد وسكانها بعد أن رماها الأعداء بالمنجنيق وأنزلوا بأهلها العذاب واصطلى الأهالى فيها بالنيران وخرجوا من منازلهم مشكين * فهو شعر فيه احساس صادق وتحس بالآلام تتدفق من ثنايا هذا الشعر الحزين من تلك البلوة التى عمت بغداد وأهلها والتى أهلكت المحرث والنسل وراح ضحيتها الأبرياء من الناس وقد درست محاسنها وفى ذلك يقول العترى :

من ذا أصابك يا بغداد بالعين
الم تكونى زمانا قرة العين
الم يكن فيك قوم كان قريهم
وكان مسكتهم زينا من الزين
صباح الغراب بهم بالبين فانفرضوا
ماذا لقيت بهم من لوعة البين
أسئودع الله قوما ما ذكرتهم
الا تحادر ماء العين من عيني
كانوا ففرقهم دهر وصدعهم
والدهر يصدع ما بين الفريقين (٤٦)

(٤٥) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٤٤٦ . تحقيق محمد أبو الفضل -
دار المعارف .
(٤٦) تاريخ الطبرى ج ٨ ص ٤٤٧ تحقيق محمد أبو الفضل ، مروج
الذهب ج ٣ ص ٤١٢ .

والشاعر هنا يذكر ما حل ببغداد أيضا وما حدث لها ويرجعه لعين الحاسدين التي أصابتها وقد صاح بها الغراب وأصابهم من اللوعة ما أصابهم ولم يجد سبيلا إلا التجلد والصبر والا أن يستودع الله هؤلاء الناس ويكي فراقهم ويذرف الدموع عندما نذكر هؤلاء الناس وحياتهم الماضية الوارفة ولما أصاب مدينة السلام وما لحق بأهلها بعد أن كانت قرة للعين ، وكانوا هم زينتها وبهجتها وأنه ليكي فراقهم كلما استحضر صورة حياتهم الماضية بل ان لوعة الأسى لتجعل الدمع ينحدر من عينيه من لقاء نفسه وهذا أبلغ حالات الأسى والحزن ولعل من الطبيعي أن يتفجر هذا الرثاء عن عاطفة انسانية صادقة • إذ لم يدفع الشاعر اليه سواها مما يكون في رثاء الأشخاص من مثل القرابة والمجاملة أو الحصول على العطاء والجزاء •

« بكاء البصرة »

وليس « بغداد » وحدها هي المدينة التي بكأها الشعراء في العصر العباسي الأول فقد بكوا « البصرة » وكانت المدينة الثانية التي حلت بها وبأهلها نكبة فادحة وذلك في عهد الخليفة المعتمد « ٢٥٦ : ٢٧٩ هـ » (٤٧) • وكان ذلك بعد الفتنة التي كانت بين الأميين والمأمون بثمانين عاما أو بالدقة في سنة ٢٢٧ هـ : ٨٩٠ م (٤٨) • وقد كانت نكبة البصرة على أيدي ثوار الزنج بزعامة علي بن محمد الذي ادعى النسب إلى زيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٤٩) • وان كان بعض المؤرخين أنكر أن يكون « تأوى البصرة علي بن محمد الذي ثار بأيام المعتمد علي الله منتهى النسب إلى علي بن أبي طالب فقد وصفوه بأنه كان متحيرا في أثبات نسبه الطالبى فقد ذكر أبو العلاء المعري في رسالة الغفران حيث

(٤٧) فى الشعر العباسى الرؤية والفن ص ٣٧٤ • عز الدين اسماعيل •

(٤٨) دراسات أندلسية ص ٢٢٦ • الطاهر أحمد مكى •

(٤٩) فى الشعر العباسى ص ٣٧٤ • عز الدين •

قال : « وأما العلوى البصرى فذكر بعض الناس أنه كان قبل خروجه يذكر أنه من عبد القيس ثم من أنمار وكان اسمه أحمد فلما خرج تسمى عليا والكذب كثير جم » (٥٠) . وقد ذكر صاحب جمهرة أنساب العرب عندما ذكر بنو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فقال : ولو علم النسب لجاز لهذا الكافر ما ادعى من هذا النسب الشريف وإنما كان صاحب الزنج علي بن محمد بن عبد الرحيم العباسي من عبد القيس (٥١) ولكن البعض يذكر أنه كان علويا وعلل نهوضه بالفتنة لأسباب مظلمة العباسيين بالعلويين وأخذهم منهم حقهم الأول في الخلافة واستطاع العلوى أن يضم إليه عددا غير قليل من الزنج الذين هبوا إلى نداء العلوى لأنهم وجدوا في ذلك خلاصا لهم من عبودية الرق والظلم الذى كان واقعا عليهم . ففى هذه الثورة وجد الزنج متنفسا لهم فيها ضد أسيادهم العباسيين . ولقد استغلها العلوى عندما عزم على النهوض في وجه العباسيين وقد جعل هؤلاء العبيد وسيلته إلى الوصول لأغراضه السياسية الخاصة وظهر هذا بوضوح عندما تحولت دعوته التى كانت بقصد المطالبة بالحرية للزنج إلى سفك دماء وانتهاك محارم وهدم بلاد واستحلال نساء محرّمات وانتهاك أهوال وانتهى به الأمر بعد هذا الاجرام إلى ادعاء النبوة والرسالة (٥٢) . وقد قتل علوى البصرة في موضع بها - البصرة - يقال لها الحقيقة أربعة وعشرين ألفا ودوهم بالقصب وحرق جامعها وقال في خطبته يخطب في الزنج : « انكم

- (٥٠) رسالة الغفران لأبى العلاء ص ٤٤٨ تحقيق د. بنت الشاطي .
طبعة دار المعارف ط السابعة .
(٥١) جمهرة أنساب العرب ص ٥٧ لابن حزم الأندلسي . تحقيق
د. عبد السلام هارون .
(٥٢) انظر شعر الحرب في الأدب العربى ص ١٧٠ - ١٧١ د. زكى
الحاسنى دار المعارف بمصر الطبعة الثانية .

قد أغيتم بقبج مظهر فاشفعوه بقبج مخبر واجعلوا كل عامر كفرا
وكل بيت قبرا» (٥٣) •

وكان قد عزم على حرب مع الخليفة العباسي أبو أحمد الموفق أخو
المعتمد على الله فحاربه أربعة عشرة سنة ففنى سنة ٢٧٧ هـ « اقتحم الزنج
مدينة البصرة من ثورتهم التي قاهوا بها وقاوهوا الدولة خلالها أربعة
عشر عاما وقام بها ضحايا الاستغلال الذي مارسه زبانية الاقطاع
تجاه المستضعفين الذين كانوا يعملون في مناجم الملح الواقعة في
نهر الفرات الأدنى فغرس السخط والحقد في نفوسهم ونفوس من
كانوا في مثل حالتهم وأرسلت الدولة الجيش لاختصاصها ولكن ظروف
المقاطعة وكثرة المستنقعات والترع جعلتهم ينتصرون على كل هؤلاء
الجند» (٥٥) وبينالون من كل ما وقع تحت أيديهم من الأسرى حتى من
غير المحاربين ومما يذكر من فداحة هذه الثورات ونتائجها إذ « يقدر
عدد من قتل وذهب ضحية هذه الحرب بأكثر من نصف مليون وعقب
أحدى المعارك بلغ عدد الرؤس التي لم تطلب من الكثرة حدا جعل
الزنج يفرغونها في إحدى القنوات التي حملتها الى البصرة ليتعرف
عليهم أهلوههم وأصدقائهم هناك» (٥٦) •

ولقد بكى البصرة كثير من الشعراء عندما اقتحمها الزنج وأخذوا
يسومونهم الخسف والمعذاب فقتلوههم وخربوا ديارهم وبناءوهم في
الأسواق بيع العبيد وفي سنة ٢٥٨ هـ أوقعوا بأهل البصرة وقعة هائلة
قتل فيها من أهل البصرة عدد كثير وخربت أكثر مبانيها، وكما أثارت نكبة
بغداد كثيرا من الشعراء من أمثال الخريمي وعمر الأوراق وغيرهما

(٥٣) رسالة الغفران ص ٣٥ تحقيق د. بنت الشاطئ، الطبعة الثانية

(٥٤) تاريخ الطبري ج ١١ ص ٣٢٦ •

(٥٥) دراسات أندلسية ص ٢٢٦ د. الطاهر مكي •

(٥٦) دراسات أندلسية ص ٢٢٧ د. الطاهر مكي •

كذلك أثارت نكبة البصرة هذه وأثرت في نفس ابن الرومي تأثيرا بليغا
فنظم قصيدة طويلة في بكاء البصرة وأهلها ورثى هذه المدينة رثاء حارا
صادقا يفصح عما نزل بها وقد وجدت البصرة في ابن الرومي الشاعر
الذي يبيكيها ويصف ما فعله الزنج بها والمأساة المروعة التي تعرضت لها
فقال في قصيدته التي مطلعها (٥٧) :

زاد من مقلتي لذيق المنام

شغلها عنه بالدموع السجام

ولقد كانت لأخبار الدمار التي حلت بالبصرة هي التي أوقعت
الحسرة والأسى في نفس الشاعر - ابن الرومي - وحينئذ لم تكف
عيناه عن البكاء ولم تطيق الاستسلام للنوم الهاديء وهذا ما جعله
يقول :

أى نوم من بعد ما حل بالبصـ

رة من تلکم الهنات العظام

أى نوم من بعدما انتهك الزنـ

ج جهارا محارم الاسلام

أقدم الخائن اللعين عليها

وعلى الله أيما اقدام

وأخذ الشاعر يصور ما حل بالبصرة على أيدي الزنج في مشاهد
متلاحقة تفيض بالأسى وتنبض بالحزن ، وقد نهج ابن الرومي في هذه
المرثية منهج الموازنة والتصوير المأسوي معا كما صنع الخريمي في
أجزاء من قصيدته • فهو يصف حال المدينة قبل تخريبها وكيف أنها

كانت كعبة العلم ومصدرا من مصادر الخير العميم ووصف أهلها
الآمنين ثم انتقل الى تصوير ما حل بالمدينة على أيدي الزنج وصور كيف
باغتهم العبيد بالسيوف فقال (٥٨) :

بينما أهلها بأحسن حال
اذ رماهم عبيدهم باضطلام
دخلوها كأنهم قطع الليا
ل اذا ارح مدلهم الظلام
اذ رموهم بنارهم عن يمين
وشمال وخلفهم ومام

ولقد كانت هذه المراثية العظيمة التي تعد ملحمة من ملاحم الشعر
العربي تصويرا رائعا صادقا في نقل مشاعر الشاعر وعواطفه ازاء
وطنه الذي راح ييكيه ويصور ما حل به من قلق وما سيطر عليه من
حزن ولقد أفاد الشاعر التاريخ بكثير من ألوان المعرفة حيث دل على
أصل هؤلاء الزنج فبين أن أصلهم من العبيد والخدم ووضح ذلك في
قوله :

بينما أهلها بأحسن حال اذ رماهم عبيدهم باضطلام

وهذا يدل على أن الأدب مع التاريخ فهو يسجله ويوضحه وفي بعض
الأحيان يصور ما يهمله ولست بدعا في هذا الرأي فقد سبقني اليه كثير
من الباحثين (٥٩) وعلى هذا الأساس فقد أفاد ابن الرومي التاريخ وقد
أيد هذا كثير من الباحثين (٦٠) الذين رأوا أن أفعال الزنوج التي

(٥٨) ديوان ابن الرومي ج ٦ ص ٢٣٧٨ ق رقم ١٢٥١ .

(٥٩) راجع الحياة العربية من خلال الشعر الجاهلي ص ٣ د . الحوفي

الشعر في عصر المأمون ص ١٤ د . علي طلب .

(٦٠) راجع شعر الحرب ص ١٧٠ د . زكي المحاسني .

اجترحوها كانت نتيجة أو رد فعل لما حدث لهؤلاء العبيد من جور واستعباد من أسيادهم ثم انتقل الشاعر الى تصوير ما حل بالبصرة على أيدي الزنج بعد أن باغثوا أهل المدينة التي كانت آمنة مطمئنة وفي أحسن حال ويصور المشهد الثاني من أفعال الزنج وما اقترفوه من ذنوب وآثام وكعاداته يهتم بالوقائع ويستقصى حقائق الأحداث وتفاصيلها دون شطط أو جور ولقد شهد له بالروعة والصدق في التعبير كثير من الباحثين إذ قال بعضهم : « وقد وجدت البصرة في ابن الرومي الشاعر الذي يبيكها ٠٠٠ وقصيدته تبلغ الذروة احكاما في بنائها وتسلسلا في أفكارها وكل بيت يسلمك الى ما بعده ضرورة » (٦١) ويمضى الشاعر في تصوير الهلع والذعر الذي أصاب أهل البصرة لدرجة أن الشارب غص بشرابه والطاعم غص بطعامه من بشاعة ما ارتكبه من أفعال حتى من أراد الفرار تلقفوه بسيوفهم وأجهزوا عليه برماحهم فقد صور الشاعر في هذا البيت كيفية ما حدث حتى لمن فكر في الفرار فقال (٦٢) :

كم أغصوا من شارب شراب
كم أغصوا من طاعم بطعام
كم ضنن بنفسه رام منجى
فتلقوا جبينه بالحسام

فهو يصور ما فعله الزنج مع هؤلاء الأمنيين من الضرب والنكال الذي أصابهم في وجوههم ولقد فقد أهل البصرة أمام ذلك الغزو المدمر كل حيلة حتى الفرار والانسحاب وقد انشغل كل انسان بنفسه حتى

(٦١) دراسات أندلسية ص ٢٢٧ د. الطاهر أحمد دكي .

(٦٢) ديوان ابن الرومي ج ٦ ص ٢٣٧٨ تحقيق د. حسن نصار .

الهيئة المصرية العامة طبعة سنة ١٩٨١ .

عن أخيه فإذا ما وجد أخاه صريعا أو مقتولا أو مصابا يعانى سكرات الموت معفرا بالتراب أو ملقى بين الشهداء الكرام الذين نالت منهم يد العدو الغدار فلم يكن فى استطاعته تخليصه حيا أو دفنه ان كان ميتا وكذلك الأب كان يرى العزيز من أبنائه يضرب بالسيف ويقتل أمام عينيه ولا يملك له من الأمر شيئا وكثير من الناس الأعداء على أهليهم وذويهم أصابهم الضرب والسلب وغلبوا على أمرهم ولم يكن بوسع أحد حمايتهم أو الذود عنهم وأفدح من كل هذا ما نال الأطفال الرضع من قتل وحرمان وفطم بحد السيف وهذا يدل على منتهى القسوة والشدة حتى انهم لم يرحموا طفلة بريئة ولا شيخا كبيرا والشاعر استطاع أن يصور مدى موقف هؤلاء الأعداء ضد سكان المدينة وبالذات ضد الضعفاء من الأطفال الرضع والفتيات العذارى وهن يتعرضن للاعتداء أو سلب أعز وأعلى ما تملكه الفتاة ، يؤكد على ذلك بأنهن مصونات بقوله كم فتاة بخاتم الله بكرا • ومع ذلك انتهكوا أعراضهن جهرة وبلا وازع من دين أو ضمير وأن فضحهن كان جهارا ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل أخذوهن سبايا وجعلوهن مكشوفات الوجوه وكن من قبل مصونات فى خدورهن وقد صور ذلك شعرا فقال (٦٣) :

كم أخ قد رأى أخاه صريعا
ترب الخد بين صرعى كرام
كم أب قد رأى عزيز بنيه
وهى يعلى بصارم صمام
كم مفدى فى أهله أساموه
حين لم يحمه هنالك حامى
كم رضيع هناك قد فطموه
بشبا السيوف قبل حين فطام

كم فتاة بخاتم الله بكر
فضحوها جهرا بغير اكتم
كم فتاة مصونة قد سبوا
بارزا وجهها بغير لثام

ويمضى الشاعر في قصيدته الناطقة بالتصوير المشعة بالمشاعر
التي أثرت في أهل البصرة وهزت كيانهم ولا أظن أن انسانا ما أيا كان
احساسه لابد وان يتأثر ويهتز كيانه ويتحرك وجدانه ويشترك الشاعر
مشاعره الباكية وهذا هو الغرض الأساسي من الأدب « فليس غرض
الأدب التسلية والتلهي فحسب وانما غرضه ايقاظ نفس وتنبه ضمير
... وهو لا ينقضى بانقضاء ساعة ولا يذهب مع الريح وانما يؤثر في
حياتنا جميعا ... وهو وسيلة من وسائل فهم الحياة والاحساس
بها » (٦٤) وهكذا كانت علاقة ابن الرومي بالبصرة علاقة شاعر بوطنه
الكبير ومدينته العظيمة حيث مشاعر الاخلاص الصادق الوافي وقد
ظهرت هذه المشاعر في ثنايا مراثيته فهو يئن مع مدينته وأهله وأهلها
وكيف لا وهو لا يملك الا أن يرثى لما حل بها من تشريد للأطفال وهدر
لكرامات النساء فيقول (٦٥) :

من رآهن في المساق سبايا
داميات الوجوه للأقدام
من رآهن في المقاسم وسط الز
نج يقسمن بينهم بالسهام
من رآهن ليتخذن اماء
بعد ملك الاماء والخدام (٦٥)

(٦٤) فصول في الأدب والنقد والتاريخ ص ٥٠ على أدهم الهيثة
المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٩ م .
(٦٥) ديوان ابن الرومي ج ٦ ص ٢٣٧٩ .

أين ضوضاء ذلك الخلق فيها
 أين أسواقها ذات الزحام
 بدلت تلکم القصور تلالا
 من رماد ومن تراب وکام
 سلط البشق والحريق عليها
 فتداعت أركانها بانهدام
 وحلت من حلولها فهي قفر
 لا ترى العين بين تلك الأکام
 غير أيد وأرجل بائنات
 نبذت بينهن أفلاق هام (٦٦)
 انفوا أيها الکرام خفا
 وثقالا الى العبيد الطغام (٦٧)
 ان قعدتم عن اللعين فأنتم

شركاء اللعين في الآثام
 فالشاعر يوضح كل هذا ويقول من رآهن وهن يوثقن أمام الأعداء
 سبايا وهن مصبوغات بالدماء التي تلطخت بها النساء من رعوسهن الى
 أقدامهن والأعداء يسوقون النساء ثم يقسموهن كما تقسم الغنائم
 بالسهام ليقمن على خدمة هؤلاء الزنج شأنهن شأن العبيد بعد أن كن
 في عزة الملك ويخدمهن الاماء ، وهكذا ذاقت المدينة وأهلها الكثير بعد
 أن أنزل الزنج بأهلها القتل والسب وهدموا دورها العامرة وقصورها
 المشاهقة اذ سلط عليها الحريق من جهة وشقوا اليها طريق المهاوى
 وبدور الدمار لاغراقها من جهة أخرى ، ومن يتدبر هذه القصيدة يلمح
 فيها « صورة التهويل الماثرة المتتابعة بسوقها ابن الرومي ويوضحها بما

(٦٦) ديوان ابن الرومي ج ٦ ص ٢٣٨٠ .

(٦٧) ديوان ابن الرومي ج ٦ ص ٢٣٨١ ، ٢٣٨٢ .

وهب من براعة في فن التصوير الشعري وكأنه يهدف من وراء هذا أن يستل الرحمة من قلوب من يعطف على هؤلاء الزنج ويتعاطف معهم في حجتهم ويقف معهم في مطلبهم الذي راحوا ينادون به وهو الحرية . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن هذه المراثية قالها ابن الرومي في مدينة البصرة وكان يهدف منها صياغة المأساة وتصويرها في أبيات شعرية وأتى فيها من التهويل والاثارة ما يحفز همة الخليفة وهمة الناس والنهوض لنصرة هذه المدينة البائسة والوقوف لأولئك الأعداء (٦٨) ، فأخذ يذكر بما كان فيها ويتساءل أين الطرب والأصوات التي تعلو المدينة بالغناء أين ما كان فيها من قصور شامخة أين أين . . . كل ذلك ذكره ابن الرومي في قصيدته وقد « صور تحريق الزنج لقصور البصرة وبكى رسومها وأطلالها ومسجدها واستنجد المسلمين واستغاث بهم على نصرتها ودعاهم أن ينفروا خفافا وزو ثقالا حتى ينتقوها منهم شر انتقام » (٦٩) وقد جعل الشاعر نهاية القصيدة وصفا لتهديم القصور وتحريق أركانها وتحويلها إلى أكوام من التراب والرماد من كثرة ما سلط عليها من المواد المدمرة التي صيرتها أشلاء وقتلها تملأ ساحتها وشوارعها وقد جعل آخر مرحلة في القصيدة حث القوم الكرام على محاربة هؤلاء العبيد وبين لهم أن من يتأخر أو يتهاون فهو شريك معهم تناله اللعنة ويصيبه الاثم .

حقا انها لأكثر من رائعة تضاف الى روائع ابن الرومي التي سجلها لنا التاريخ وشهد له بالتفوق الكثير من الأدباء والنقاد قديمهم والحديث وبالذات في هذه القصيدة التي تعد بحق ملحمة تاريخية عظيمة صور فيها ابن الرومي ما حدث للبصرة في الحرب الزنجية « وقد ذكر غير ابن الرومي هذا الحدث الجلل لكن أحدا من الناس لم يحسن تصويره

(٦٨) انظر شعر الحرب في أدب العرب ص ١٧٤ د زكي المحاسني

(٦٩) فن الرثاء ص ٤٨ للجنة من أدباء الأقطار .

ووقف الشعر عليه كما أحسن ابن الرومي ووقف... وكفى بابن الرومي
أن يروح تياها بهذا الوصف « (٧٠) »

هكذا كان رثاء ابن الرومي للبصرة تصويرا للمأساة انطلق فيه
بدافع ذاتي وأدى دورا فعالا في حفز الهمم وإدراك المدينة المستباحة (٧١)
وذلك هو الشعر الخالد حقا صور لا تعتمد على طلاء وزخرفة وإنما
فكر آخذ بعضها برقاب بعض تمر أمام العين كما يمر شريط الذكريات
وهي بعد • رائحة لكل زمان ، وفي أي مكان ، لأنها صورة منتزعة مما هو
كائن ومما كان ومما يكون •

ومن خلال ما تقدم نستطيع أن نذكر بإيجاز أهم :

« الخصائص والسمات الفنية في هذا اللون من الرثاء في المشرق
العربي » وتتركز هذه السمات فيما يأتي :

- أولا : الابتكار والتجديد في الموضوع
- ثانيا : التركيز العاطفي أو صدق الشعور
- ثالثا : التجويد الفني أو صدق التعبير
- رابعا : طريقة تناول الموضوع والسير فيه وهي تتلخص في :

- (أ) استخدام الأسلوب الروائي •
- (ب) ظهور الوازع الديني ومزجه بالشعور الوطني •
- (ج) كثرة الموازنة بين الماضي والحاضر •
- (د) الاعتراف بالحسد والعين •
- (هـ) الارشاد والتوجيه •

(٧٠) شعر الحرب في أدب العرب ص ١٧٥ د. زكي المحاسني •

(٧١) في الشعر العباسي ص ٣٥٦ د. عز الدين اسماعيل •

أولا : الابتكار والتجديد ونعنى به أن الشاعر في العصر العباسي لم يعيش بمعزل عن الأحداث التي عاشتها بغداد والبصرة ولا سيما هذه الفتنة التي كانت بين « الأميين » ، « المأمون » والتي انتهت بدمار بغداد ، وكذلك فتن الزنج ، التي انتهت بدمار « البصرة » .

فقد حركت تلك الفتنة ، أحاسيس الشعراء ، وأهاجت مشاعرهم ، فراحوا يصورون هذه المآسي ، الأليمة في قصائد ، تبكى الوطن ، وترثي المدن ، ولقد كان هذا المنحى في الرثاء جديدا كل الجدة ، على مستوى الشعور الانساني ، ويرجع ذلك الى أن علاقة الانسان بمدينة لم تكن متوطنة من قبل بالصورة التي كانت في العصر العباسي .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الأحداث التي نزلت بالمدين الإسلامية ، في هذا العصر لم تشهد مثلها مدن الاسلام من قبل ، وبهذا فقد وجد الدافع ، والباعث الى هذا اللون الجديد الذي دعت اليه ظروف العصر ، وأحداثه ، ووجدت دوافعه ، وجرى مع هذه الدوافع الى غاياتها ، وترك لنا الشعراء العديدين من قصائدهم في هذا اللون الجديد .

ثانيا : التركيز العاطفي أو صدق الشعور :

ونعنى بالتركيز العاطفي ، في رثاء المدن ، هو أن تظهر العاطفة بوضوح لدرجة تسمح لنا أن نقول : انها أبرز عناصر المضمون الشعري . والأمثلة على ذلك كثيرة يمكن ملاحظتها بسهولة مما سبق من قصائد ، حيث نجد أن أغلب عناصر هذا الشعر هو عنصر العاطفة الصادقة ، ولم يأت هذا من كون الموضوع موضوعا عاطفيا بطبعه ولكن من غلبة الجانب العاطفي فعلا على طبيعة الشعراء حيث أصبح كل مهمهم أن يوضحوا هذا الجانب ، وينقلوه الى غيرهم ما استطاعوا . والصدق الشعوري ، أو العاطفة الصادقة هي أن تنبعث العاطفة عن سبب

صحيح غير زائف ، ولا مصطنع ، ونرى هذا في رثاء مدن العراق ،
اذ كانت قصائدهم صرخة من الأعماق ، تمثل قمة الشعر الصادق اذ أن
رثاء الشعراء لمدينته لم يكن بدافع الرغبة في العطاء ، أو الاعتبارات
المألوفة في حالة رثاء الأشخاص ، وانما بدافع ذاتي محض سببه
العلاقات الوجدانية والروابط الوطنية •

اذ كانت الحياة في العصر العباسي الأول راضية مطمئنة ، فالتناس
ينعمون بالخيرات ، ويشعرون بأن وطنهم دار أمان وسلام ، وقد غرس
ذلك في نفوسهم الحب له ، والحرص عليه ، والذود عنه أمام أى خطر
يحدث به ومن ثم تولد بين أهله الحب ، والحنين ، وبالذات عند أدبائه
وشعرائه لشدة ارتباطهم به ، ولست أزعم أن حب الوطن أو الحنين
اليه وقفنا عليهم دون غيرهم ، ولكن حنين هؤلاء الشعراء لوطنهم كان
صادقا ومتميزا ، وكثيرا وظهر ذلك عندما ضاعت مدنهم من جراء الفتن
والثورات ، وعمق احساسهم به حينما نزلت بهم وبأهلهم المصائب ،
والكوارث حتى الأطفال ، والفتيات ، والنساء كما رأينا فبكاها الشعراء
بقصائد تعكس مأساتهم في صدق وتصور محتتم في دقة وقد درخوا
ما كانت عليه مدنهم وما انتهى اليه حالهم كل ذلك جسمه الشعراء في
ايقاع حزين تكاد معه ترى كل شيء وتلمسه فقد سيطر الحزن العميق
على الشعراء وكثر البكاء ، والأنين حتى أصبح الرثاء هو الغرض
الواضح ، والفن البارز ، وكان صورة صادقة لجوى الحزن الذى عاش
يفصح عن أفكار الشاعر ، وأحاسيسه دون تصنع ، ولا تزوير ...
ويصدر عن استعداد الفطري ، ويكون الشاعر حينئذ طوع انفعاله
يذهب به أنى شاء فلا يضغ في سبيل أفكاره وعواطفه سدودا تقلل
هديرها أو تعرقل مسيرها» (٧٢) •

وهذا ما وجدناه في شعر الرثاء الجديد رثاء المدن وبكائها عند شعراء المشرق العربى •

ثالثاً: التجريد الفنى فى التعبير :

ونعنى بذلك التجويد ، محاولة الأداء ، والتعبير عن المشاعر والأحاسيس بطريقة أجود ، وأكثر ايجاء من الأغراض الأخرى وقد كان للشعراء فى هذا اللون الجديد ، وسائل مختلفة فى هذا التجويد بعضها يتعلق بالمضمون ، وقد سبق الحديث عنه ، وبعضها يتصل بالشكل ، وهذا ما نريد أن نوضحه إذ أن هذه السمة الفنية التى بدت فى رثائهم منذ نشأته كانت دائماً من أوضح خصائص هذا اللون من الشعر العباسى فى كل العصور ، وإن أخذت مظاهر مختلفة من قصيدة الى قصيدة ، ومن شاعر الى آخر •

وإذا تأملنا قصائد هذا اللون من الرثاء وجدنا الشعراء يستعملون التعبير الموحى بطريقة فنية بارعة بما تشتمل عليه من كلمات مؤثرة غاية التأثير ، وهى واضحة فى كل قصائدهم السالفة ، ولا أذكرها خوفاً من الاطئاب •

فالشاعر استطاع أن يصور عالمه النفسى الملىء بالمخاوف بالكلمات التى تنفى بالغرض وتوحى الى القارئ والسماع « لأن ذهن السامع العربى تعود النفاذ فى الصورة الحسية الى دلالتها النفسية » (٧٣) •

ولقد حقق الشعراء فى هذا اللون من الرثاء صدق الشعور ، وصدق التعبير لأنه « ينبغى أن يتجه تأليف الشعر الى ايجاد تعادلية تعبيرية طرفها الأول مشاعر الشاعر ، واحساساته ، وانفعالاته وأفكاره ، وطرفها الآخر اللغة التى تكشف هذه المشاعر والاحساسات، والانفعالات

والعواطف ، والأفكار ، ولا يتأتى ذلك الا اذا قدر الشاعر على الموازنة بين مضمون شعره وشكله ومن هنا يكن قادرا على نقل تجربته نقلا صادقا أميناً « (٧٤) » .

نحن نحس بما يختلج في نفوس الشعراء ، وما يدور بوجدانهم .

رابعا : طريقة تناول الموضوع والسير فيه :

فقد ركز الشاعر على الحوار في عرض فكرته ، والكشف عن مشاعره واختار الأسلوب الانشائي الذي يجعل العبارة أقوى تأثيرا وقد اعتمد على التصوير الواقعي بدقته الى جانب الأسلوب الخيالي الرائع الفيض بالشعور ، وقد استخدم كذلك أسلوب الموازنة بين الأمس والحاضر ، وما كانوا عليه ، وما صاروا اليه والى جانب هذا تميز أيضا بمناجاة الدهر ، وتمنى العودة الى ما كان عليه ، ويكثر الشاعر أيضا من استخدام أداة النداء كثيرا الى جانب التركيز على الحوار في عرض الفكرة ، والكشف عن المشاعر ، وتغلب أيضا الوازع الديني في التعبير حيث يقول الشاعر الأعمى :

تقطعت الأرحام بين العشائر
وأسلمهم أهل التقى والبصائر
فذاك انتقام الله من خلقه بهم
بما اجترموه من ركوب الكبائر
فلا نحن أظهرنا من الذنب توبة
ولا نحن أصلحنا فساد السرائر

ونجد الموازنة بين الماضي والحاضر يصور ذلك الخريمي فيقول :
يا هل رأيت الجنان زاهرة
بيروق عين البصير زاهرها

محفوظة بالكرم والنخيل والر
 يحان ما يستقل طائرهما
 فانها أصبحت خلايا من الـ
 انسان قد أدميت محاجوها
 قفرا خلاء تعوى الكلاب بها
 ينكر منها الرسوم زائرهما
 وكذلك يوازن ابن الرومي بين ماضى البصيرة ، وحاضرها
 فيقول :

بينما أهلها بأحسن حال
 اذ رماهم عبيدهم باضطلام
 أين ضوضاء ذلك الخلق فيها
 أين ذاك البنيان ذو الاحكام
 وهناك الكثير من هذا اللون الذى يكثر فيه الشاعر الموازنة بين
 الماضى والحاضر •

أما عن الحسد فيقول بعض شتتيان بغداد فى « بغداد » :
 أصابتها من الحساد عين فأفنت أهلها بالمنجنيق
 ويقول العتري :

من ذا أصابك يا بغداد بالعين ألم تكونى زمانا قرّة العين
 ويتحدث عن التشاؤم فيقول :
 صاح الغراب بهم بالبين فانقرضوا ماذا لقيت بهم من لوعة البين
 أما الارشاد والتوجيه فهناك الكثير منه مبثوثا فى ثنايا قصائدهم
 مثل قول الخريمى :

يا بؤس « بغداد » دار مملكة
 دارت على أهلها دوائرها
 أمهلها الله ثم أعقبها
 لما أحاطت بها كبائرها
 بالخسف والقذف والحريق وبال
 حرب التي أصبحت تساورها
 رق بها الدين واستخف بذى الـ
 فضل وعز النساك فاجرها
 وحطم العبد أنف سيده
 بالرغم واستعبدت حرائرها
 ويقول الشاعر الأعمى في تخاذل الحكام والملوك :

تخاذل عما نالهم كبراًؤهم
 فنالتهوا بالكراه أيدى الأصاغر
 فأقسم لو أن الملوك تناصروا
 لذلت لها خوفا رقاب الجبابر
 ويقول أيضاً العتري :

استودع الله قوما ما ذكرتم
 إلا تحدر ماء العين من عيني
 كانوا ففرقهم دهر وصدعهم
 والدهر يصدع ما بين الفريقين
 ومن الارشاد والتوجيه ما يذكره ابن الرومي في رثائه لمدينة
 البصرة فيقول :

انفروا أيها الكرام خفافا
 وثقالا الى العبيد الطغام
 ان قعدتم عن اللعين فأنتم
 شركاء اللعين في الآثام

وبعد :

فلعلنى أكون قد قدمت صورة واضحة لهذا اللون من الرثاء رثاء
المدن في المشرق في العصر العباسى الأول *

والله الموفق ***

د. أحمد عبد المنعم أحمد العسيلي
المدرس بقسم الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية بأسسيوط
جامعة الأزهر